



معرف الكائن الرقمي للمقال: (DOI)1054239/2319-023-001-007

الوقف الإسلامي في بلاد الحجاز والشام ودوره في استقطاب متصوفة المغرب خلال القرنين (6-7 هـ / 12-13 م)

The Islamic Endowment in the Hejaz and the Levant and its role in attracting Moroccan Sufis during the two centuries (6-7 AH / 12-13 AD)

ط.د. نور الهدى لعمارة *

جامعة عمار ثلجي الأغواط / الجزائر

مخبر التمكين الاجتماعي والتنمية المستدامة في البيئة الصحراوية

nh.lamara@lagh-univ.dz

د. معمر جعيرن

جامعة عمار ثلجي الأغواط / الجزائر

مخبر التمكين الاجتماعي والتنمية المستدامة في البيئة الصحراوية

ma.djairene@lagh-univ.dz

تاريخ القبول: 2024 / 04 / 15

تاريخ المراجعة: 2024 / 02 / 15

تاريخ الإرسال: 2024 / 02 / 05

الملخص:

يعالج هذا المقال الوقف الإسلامي في بلاد الحجاز والشام خلال القرنين (6-7 هـ / 12-13 م)، حيث تسلط الضوء على الدور المحوري الذي قامت به هذه المنشآت الوقفية بمختلف أنواعها في الحفاظ على سير الحياة العلمية واستقطاب المتصوفة المغاربة لبلاد الحجاز والشام، وتوطيد روابط الاتصال بين الضفتين الشرقية منها والغربية، ما أدى إلى زيادة نسبة المهاجرين المغاربة نحو بلاد المشرق خلال هذه الفترة، وتأتي أهمية هذه الدراسة للدور الفعال الذي لعبه المغاربة عامة والمتصوفة خاصة في بلاد الشام والحجاز من خلال الحفاظ على الحياة العلمية بالتصدي للخطر الصليبي والقضاء عليه، وإسهاماتهم في مختلف العلوم كعلوم القرآن والفقه والتصوف والعقيدة واللغة، مما ساهم في تنشيط الحركة العلمية، وهذا ما تم ذكره في مختلف المصادر التاريخية من تراجم و

* ط.د. نور الهدى لعمارة، جامعة الأغواط

طبقات وكتب الرحلات، حول الحضور المميز للمتصوفة المغاربة، الذين وجدوا في الأوقاف الإسلامية ملجأ مناسب لهم .
الكلمات المفتاحية: بلاد الحجاز والشام؛ الأوقاف الإسلامية؛ القرنين (6-7هـ/12-13م)؛ الحياة العلمية؛ المتصوفة .

Abstract :

This article deals with the Islamic endowment in the Hijaz and the Levant during the two centuries (6-7 AH/12-13 AD), as it sheds light on the pivotal role played by these various types of endowment establishments in preserving the progress of scholarly life, attracting Moroccan Sufis to the Hijaz and the Levant, and consolidating ties. Communication between the eastern and western banks, which led to an increase in the proportion of Moroccan immigrants to the Levant during this period, and the importance of this study comes from the effective role played by Moroccans in general and Sufis in particular in the Levant and Hijaz by preserving scholarly life by confronting and eliminating the Crusader threat, and Their contributions to various sciences, such as the sciences of the Qur'an, jurisprudence, Sufism, belief, and language, which contributed to revitalizing the scientific movement, and this is what was mentioned in various historical sources, including biographies, classes, and travel books, about the distinguished presence of Moroccan Sufis, who found refuge in Islamic endowments The right environment for them.

Keywords : The country of Hijaz and the Levant; MaghrebEndowments ; the two centuries (6-7 AH/12-13 AD);Scientific life ; Sufis.

مقدمة :

عرفت بلاد الحجاز والشام خلال القرنين (6-7هـ/12-13م)، ازدهارا كبيرا في مختلف الجوانب الحضارية وعلى رأسها التقدم الملحوظ في البحث العلمي، وكان من أهم عوامل هذا التقدم هي كثرة الأوقاف الإسلامية وتنوعها (المساجد و الكتاتيب، الزوايا

، المدارس، الخانقاه ...)، والتي كان لها التأثير الايجابي في التعليم وإحياء الثقافة الإسلامية، وبروز نخبة لامعة من العلماء، ومن بينهم العلماء المغاربة الذين شدوا الرحال إلى بلاد الحجاز والشام فتعددت أسبابهم فمنهم من كان طالبا للعلم وآخر للحج ثم استقروا بها وأصبحوا مجاورين للحرمين الشريفين

(مكة المكرمة، المدينة المنورة)، ولعل ما زاد استقطابهم لبلاد الحجاز و الشام هو توفر سبل الحياة ومرافقها، فالأوقاف تلعب دورا هاما فهي من الأعمال التي يتقرب بها العبد من خالقه، فضلا عن تقويتها للعلاقات بين الأفراد، ولقد ساهمت بشكل كبير في زيادة التأثير والتأثر بين العلماء المغاربة و المشاركة والارتقاء بالحياة العلمية والفكرية لأمة الإسلام.

ومن هذا المنطلق سوف نجيب على إشكالية الدراسة المتمثلة في: إلى أي مدى أسهمت الأوقاف الإسلامية في استقطاب المتصوفة المغاربة و تنشيط الحياة العلمية في بلاد الحجاز و الشام خلال القرنين (6-7هـ/ 12-13م) ؟ الفرضيات تتمثل في :

- لعبت الأوقاف الإسلامية دورا فعالا في جذب المتصوفة المغاربة لبلاد الحجاز و الشام .

- أثر وجود المتصوفة المغاربة ببلاد الحجاز و الشام في تنشيط الحياة العلمية.

- اقتصر دور الأوقاف الإسلامية على الجانب العلمي فقط.

- ساهمت الأوقاف الإسلامية في تنشيط الحياة العلمية ببلاد الحجاز دون الشام

وللإجابة عن الإشكالية المطروحة اتبعت المنهج التاريخي وذلك لجمع المادة التاريخية المتفرقة في مختلف المصادر التاريخية.

1-الأوقاف وخصائصها:

1-1- مفهوم الوقف:

لغة: يعني الحبس والمنع، (الجرجاني والحسيني، 2008: 407)، والوقف بفتح السكون: مصدر وَقَفَ الشيءَ أَوْقَفَهُ، يُقَالُ وَقَفَ لشيءٍ وَأَوْقَفَهُ وَقَفًا أي حَبَسَهُ ومنه: وَقَفَ داره على الفقراء لأنه يحبس الملك عليهم قال ابن فارس (ت 395هـ/ 1005م): " الواو والقاف والفاء أصل واحد يدل على تمكث في الشيء يقاس عليه ". (زكرياء وفارس، د.ت: 135)

وهو مصدر وَقَفْتُ أَفْ بمعنى الحبس، وَحَبَسُ العَيْنِ على ملك الله تعالى، أو حَبَسُ العَيْنِ على التَّمْلِيكِ والتَّصَدُّقِ بِالْمَنْفَعَةِ. (الطرابلسي وابن موسى، 2015: 7)

-اصطلاحا: يعرفه بعض الفقهاء انه التَّصَرُّفُ في رِيعِ الغير وما تَدْرُهُ من مَالٍ مع بَقَاءِ ذاتها وجعلها منفقها الجهة من الجهات البر، وهي بذلك تَخْرُجُ من مُلْكِ صَاحِبِهَا وسبل منفعتها مبدولة على وجه القرب لله سبحانه وتعالى،)

الداود، 2005: 107)، وتعريف الوقف اصطلاحاً عند الفقهاء، فهو عند الحنابلة: كما جاء من ابن قدامة عقيل في المغني بقوله: "تَحْبِيسُ الْأَصْلِ وَتَسْبِيلُ الْمَنْفَعَةِ". (ابن قدامة، 1996: 184)

وعند الأحناف فقد ذكره الشيخ السرخسي (ت 490هـ/1097م) قائلا بأنه في الشريعة "عبارة عن حَبْسِ الْمَمْلُوكِ عَنِ التَّمْلِكِ مِنَ الْغَيْرِ". (السرخسي، د.ت: 27)

ويعرفه ابن عرفة (ت 894هـ/1489م) بقوله: "هو إعطاء مَنْفَعَةٍ شَيْءٍ مَدَّةَ وَجُودَةٍ لِأَزْمَا بَقَاءُهُ فِي مِلْكٍ مُعْطِيهَا، وَلَوْ تَقْدِيرًا". (ابن عرفة الرصاع، 1993: 539)

والشافعية تعرفه بأنه: "حَبْسُ مَالٍ يُمَكِّنُ الْإِنْتِفَاعَ بِهِ مَعَ بَقَاءِ عَيْنِهِ بِقَطْعِ التَّصَرُّفِ فِي رَقَبَتِهِ عَلَى مَصْرَفٍ مُبَاحٍ مَوْجُودٍ". (الشربيني، 1997: 485)

1-2- مشروعية الأوقاف في الكتاب والسنة والإجماع:

- في كتاب الله:

هناك العديد من الآيات القرآنية التي حث فيها الله عز وجل عن الصدقات لما تتضمنه من اجر وثواب، والوقف باب من أبواب الانتفاع والإحسان، فمن تلك الآيات نذكر: قوله تعالى: "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ (91) وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ" (سورة آل عمران، 91-92)، والآيات في هذا الباب كثيرة داعية إلى التصديق والتقرب من الله عز وجل والوقف، يعتبر من أولى مظاهر العبادة التي يضمن بها صاحبها الأجر أثناء حياته ومن بعد مماته.

- في السنة:

توالت العديد من الأحاديث النبوية، وتضافرت على الترغيب في الصدقة والأوقاف والحث عليهما ومنها: ما روي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ". (بن الحجاج، 1955: 1255)

وقد ذهب العديد إلى القول بأن هذا الحديث هو أصل الوقف انطلاقاً من اعتبار أن الصدقة الجارية يمثلها الوقف بالدرجة الأولى، فالوقف مستحب شرعاً لأنه من أعمال البر والإحسان.

1-3-أنواع الوقف :

ينقسم الوقف في الغالب إلى ثلاث:

-الوقف الخيري:

أو الوقف العام، ويقصد به حبس العين عن تمليكها من العباد والتصدق بالمنفعة ابتداء على جهة من جهات البر التي لا تنقطع كالفقراء والمساكين، واليتامى وأبناء السبيل، وبناء المساجد والصرف عليها أو تشييد دور العلم على اختلافها، وإعداد العدة للجهاد في سبيل الله ونحو ذلك مما يحقق العلم لأبناء المسلمين كافة. (أمين، 1980: 76)، وهذا النوع من الوقف يعد أكثر فائدة لأنه يدعم أكبر القطاعات في المجتمع.

-الوقف الأهلي أو الذري:

وهو الذي يوقف في أول الأمر على نفس الواقف ثم على أولاده فأحفاده، فأقاربه، ثم على جهة بر لا تنقطع كالفقراء والمساكين ونحوهم. (المبعوث، 2000: 103)

- الوقف المشترك:

وهو جعل إلى الذرية وجهة البر معا في وقت واحد، كأن يقف الواقف ماله على ذريته، ويجعل في الوقت نفسه سهام معينة لجهة بر، ويشترط في الوقت ذاته أن يكون لبعض ذريته أو لشخص معين سهم فيه، ويستأنس لذلك بما روى أن الحوائط السبعة التي وقفها النبي عليه الصلاة والسلام كان يأكل منها ويطعم. (عبد الرحيم، 2003: 189)

1-4- مجالات الأوقاف:

الوقف نوع من أنواع الصدقات وأعمال الخير التي حث عليها الدين الإسلامي ورغب في الإكثار منها، ولهذا تنوع سبل الصرف على الأوقاف وتنوعت مجالاتها فنجد منها:

- عمارة المساجد والإنفاق عنها:

عمارة المساجد والوقف عليها من أفضل القربات إلى الله تعالى، إذ تعتبر مكان اجتماع المسلمين لأداء أعظم ركن من أركان الإسلام، وإن تعمير المساجد له قدسية في الدين الإسلامي لقوله تعالى: { إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ }، (سورة التوبة، 18)



وتعد المساجد أول مراكز التعليم الإسلامي وأهمها على الإطلاق، ومن المساجد التي اشتهرت بحلقها العلمية المسجد النبوي الشريف بالمدينة والحرم الملكي، مسجد البصرة، مسجد الكوفة، وغيرها من المساجد التي رسالتها العلمية خير أداء، وكانت النواة الأولى لتأسيس المساجد الجامعة في العالم الإسلامي. (أمين، 2003: 189)

إنشاء المدارس والمكتبات :

لقد انتشر نمط الوقف على المدارس ودور التعليم لعامة انتشارا واسعا في الحضارة الإسلامية، مما كان له الأثر الواضح في نشاط حركة التعليم عند المسلمين فبنيت المدارس أصلا عن طريق الوقف، ووفرت حاجيات التعليم بأبعادها المختلفة من المدرسين ومساكن وأدوات وتجهيزات مدرسية. (النعيمي والدمشقرى، 1990: 290)

وكذلك انتشر الوقف على الكتب والمكتبات في أرجاء العالم الإسلامي منذ العصور الإسلامية المبكرة، وكان له الأثر الواضح في تعدد المكتبات وتنوع مناهلها، وبالتالي تركت أثارها الواضحة في الازدهار الثقافي والعلمي الذي شهده العالم الإسلامي على مدى القرون الطويلة. (الساعاتي، 2003: 189)

- الرعاية الصحية :

كانت البداية الأولى لظهور المستشفيات في الإسلام في غزوة الخندق؛ إذ وضع النبي صلى الله عليه وسلم خيمة لما أصيب سعد بن معاذ حيث قال صلى الله عليه وسلم " إَجْعَلُوهُ فِي خِيْمَةٍ رَفِيْدَةٍ أَعْدُوهُ مِنْ قَرِيْبٍ". (عبد الله، 1996: 28)

وشيد صلاح الدين الأيوبي بيمارستان (دار للمرضى) في إحدى جوانب القصر الفاطمي، وخصص فيه الأطباء من مختلف الاختصاصات، وأوقف عدة مرافق في القاهرة لتندر عليه بمصاريف التكفل، وقد ملأ مخازنه بالأدوية والعقاقير الطبية وخصص فيه جناحا للنساء، وجناحا لمرضى العقول، فكان دائم السؤال على هذا البيمارستان. (عبد الله، 1996: 196)

- التكافل الاجتماعي:

إن نظام الوقف يقدم خدمة جليلة للمجتمع الإسلامي، لما يملكه من مرونة إستطاع أن يبسط مبدأ التكافل الاجتماعي، لما يقدم من مساعدات للفقراء والمساكين والمحتاجين، وذلك بهدف التقرب إلى الله وتعتبر فئة اليتامى من الفئات التي اعتنى بها الوقف، ومن صور رعاية اليتامى مكتب

السبيل الذي أنشأه السلطان الظاهر بيبرس بجوار مدرسته (عاشور، 1987: 383)، كذلك من أشهر الأوقاف لرعاية الأيتام ما نقل في مآثر صلاح الدين الأيوبي الذي أمر بعمار مكاتب ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل يعلمون الفقراء والأيتام. (شبارو، 1994: 141)
-الجهاد في سبيل الله:

قد تكررت صور الوقف عل الجهاد والمجاهدين في سبيل الله وخاصة في العصور التي تعرض فيها المسلمون لمواجهات عسكرية، كما حصل في بلاد الشام ومصر إبان الحروب الصليبية وهجمات المغول، فتعددت هذه الصور عند الزنكيين والأيوبيين والمماليك، بصفة مباشرة وكان لها الأثر الواضح في تمويل العديد من الحملات العسكرية. (ابن تغري بردي، 1994: 141)

2- أبرز الأوقاف الإسلامية في بلاد الحجاز والشام خلال القرنين (6-7هـ/12-13م) ودورها في استقطاب المتصوفة المغاربة وتنشيط الحياة العلمية:

2-1- الأوقاف الإسلامية في بلاد الحجاز:

لقد تعددت المؤسسات الوقفية في بلاد الحجاز، فنجد من بينها الأربطة التي حددت وظيفتها في إيواء المحتاجين من الغرباء الوافدين إلى مكة والمدينة، ووفرت لهم كل ما يحتاجونه من مأكل وملبس ومشرب كما أتاحت لسكانها فرصة المذاكرة وتبادل المعارف والإجازات لاسيما أن معظم هذه الربط قد توفرت على مكنتات خاصة فعدد الربط بالحرم المكي فاق الخمسين ربط وهذا دليل على كثرة المجاورين. (خلفات، 2002: 517). ومن أشهر الأربطة نجد:

رباط ربيع وهو واقفه عن موكله الأفضل بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وتاريخ وقفه سنة أربع وتسعين وخمسائة، (الفارسي، 1986: 121)، ويذكر ابن بطوطة (ت776هـ/1373م) عن هذا الرباط واصفا إياه حيث يقول عنه (أنه من أحسن الرباطات بمكة، داخله بئر عذبة، لا تماثلها بئر بمكة، وسكانه الصالحون، وأهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيما شديدا). (ابن بطوطة، 1987: 154)، وعن شروط وقفية الرباط فقد نقل الفاسي وابن فهد شرط وقفه حيث ذكر أن أوقفه على الفقراء المسلمين والغرباء، حيث كان لهذا الرباط أوقاف ثابتة وأوقاف منقولة. (شافعي، 1995: 81)



ومن بين الأربطة التي كان يلتجأ إليها المغاربة في بلاد الحجاز هو رباط المغاربة الذي كان يسمى أيضا برباط الموفق ورباط عثمان بن عفان، قام بإنشائه القاضي الموفق بن عبد الوهاب الإسكندري (ت624هـ/1227م (-) وهو من أهل مصر، جعله خاصا بالفقراء والمتعبدین من المجاورين بمكة من المسلمين القادمين من بلاد المغرب ولقد اعتنى المغاربة بتسيير شؤونهم، (الخطيب، 2008: 216)، وقال عنه ابن بطوطة في رحلته (وهو من أحسن الرباطات، سكنته أيام مجاورتي بمكة المعظمة).

نجد أيضا من الذين أوقفوا المتعبد السالك طريق الزهد والخلوة عمر بن مكبين علي الخوزي أبو حفص الملقب بالسراج، الفقيه الشافعي صاحب الرباط الموقوف المشهور بمكة عند باب إبراهيم أيضا وقف الدار المعروفة بدار المؤذنين بسوق الليل وتاريخ وقفها في سنة سبعة عشر وستمئة بمكة وهي وقف على الصوفية الغرباء المجردين، كذلك رباط آخر يسمى برباط التميمي أوقفه الشيخ أحمد ابن إبراهيم التميمي سنة (620هـ/1220م).

ومن بين المؤسسات الوقفية نجد المدارس، كالمدرسة الزنجيلي وهي مدرسة أسماها الأمير فخر الدين عثمان بن علي الزنجيلي، وهو منسوب إلى الزنجيلية وهي قرية من قرى دمشق، وقد أوقف هذا الأمير مدرسته على فقهاء الحنفية سنة (579هـ/1183م) وموضعها عند باب العمرة خارج المسجد الحرام، وهي الدار المعروفة بدار السلسلة، وقد بنى بجوارها رباطا خاصا لسكن المدرسين فيها، ويفصلها عن المسجد الحرام دار واحدة (ناجي، 1977: 349). ونجد المدرسة العادلية والتي شرع ببنائها نور الدين وقد أدركه الأجل دون إدراك عملها، وبنائها بعده الملك العادل أبو بكر بن أيوب أخو صلاح الدين. (أبو شامة، 1997: 294)

كذلك نجد من بين المدارس الموقوفة المنصورية (المظفرية) التي أوقفها الملك المنصور صاحب اليمين، والتي تقع في الجانب الغربي من المسجد الحرام، أوقفها على الفقراء الشافعية المحدثين، وكانت عمارة المدرسة على يد الأمير فخر الدين الشلاح سنة (641هـ/1243م) (الفاسي، 1956: 328). ولقد عرفت بالفخرية أيضا أو مدرسة الشلاح ثم عرفت بالمدرسة المنصورية، كذلك سميت باسم مدرسة السلطان أو المظفرية نسبة إلى الملك المظفر والد الأمير فخر الدين وقد جعل فيها الملك المنصور مدرسا ومعيدا وإماما ومؤذنا، وسمح للأيتام أن يتعلموا القرآن الكريم فيها.

وقد تعددت المدارس الموقوفة في بلاد الحجاز، حيث ذكر الفاسي (ت832هـ/1222م) أن تعدادها نحو إحدى عشر مدرسة، (الفاسي، 1956: 117) اثنان منها للمالكية وهي مدرسة الأرسوفي بقرب باب العمرة، بناها العفيف عبد الله بن محمد الأرسوفي، ومدرسة بن الحداد المهدي وتعرف بمدرسة الأشراف الأدارسة تاريخ وقفها سنة ثمان وثلاثين وستمئة.

2-2- الأوقاف الإسلامية في بلاد الشام:

توفر لبلاد الشام عدد كبير من الأوقاف العلمية (من مدارس وخوانق وزوايا وربط ودور القرآن والحديث والمساجد) قاربت نحو ثلاثمائة مكان أي أن ثلاثة أرباع المدارس المشرقية، فشكلت بذلك عامل جذب واستقطاب، للعلماء والطلاب المغاربة لاسيما وأنهم وجدوا بها كل مظاهر التكريم، من قبل السلاطين والأمراء وحسن المعاشرة من الأهالي، وهذا ما دفعهم إلى الاستقرار في هذا القطر.

فكما أشار ابن جبير (ت614هـ/1217م) عن كثرة الأوقاف المرصودة للمراكز التعليمية في بلاد الشام، إذ يقول (ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض بيضاء ورباع، حتى أن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه)، ومن بين هذه الأوقاف نذكر أن دمشق وحدها كان بها ثلاثة وعشرون رباط منها: رباط البياتي والتكريتي والفقاعي، وأقامت زوجة صلاح الدين (بنت عصمت الدين الخاتون) رباطا للصوفية في الشام.

أما بالنسبة لعدد الزوايا فقد بلغت الست والعشرون زاوية، وقد ارتفع عددها لكثرة الطرق والمشايخ والمعتقدين، وذلك بعد القرن السادس للهجرة، الثاني عشر للميلاد منها الزاوية الحريرية، التي أنشأها بن محمد مسعود الحريري سنة (630هـ/1085م) والزاوية اللارومية التي أنشأها عبد الله بن يونس الأرموي (ت631هـ/1086م).

وحظيت المساجد في دمشق بعظيم العناية من قبل سلاطينها فعلى عهد نور الدين محمود بن زنكي، تذكر المصادر أنه طلب إحصاء مساجد دمشق وأعمالها فأنفقت عن مئة مسجد، فأمر بعمارة ذلك كله، وعلى ذلك سار السلطان صلاح الدين الأيوبي بعمارة المساجد وترميمها، فمن ذلك ترميم الجامع الأموي حيث رمم منه دائرة قبة النسر، والرفوف المستديرة عليها، والفص المذهب والطاقت، تولى لذلك قاضي القضاة بالشام محي الدين بن علي بن محي الدين بن يحيى القرشي، وأمر السلطان صلاح الدين أن يجدد

عمارة مسجدين بدمشق أحدهما بسوق باب الصغير، والآخر بالباب الشرقي من دمشق، يعرف بمسجد النخلة.

وعندما أعزه الله بالنصر على الصليبيين وفتح بيت المقدس، طهره من كل الأنجاس والمنكرات التي جعلها الفرنج فيه، فعمر المسجد الأقصى وترتب فيه الأئمة والخطباء والعلماء وجعل لهم رواتب، وأوقف لهم الأوقاف (دارا وأرضا وبستانا) وحمل إليه المصاحف والختمات.

وكانت في بلاد الشام العديد من المدارس الوقفية التي تشمل مختلف المذاهب الفقهية، فنجد من بين هذه المدارس التي وقفت في بلاد الشام لخدم المالكية هي المدرسة الصمصائية، وبها سكن قاضي القضاة المالكية وقعوده للأحكام، والمدرسة النورية عمرها السلطان نور الدين محمود الزنكي، والمدرسة الشرابشية عمرها شهاب الدين الشرابيشي التاجر، وتقع بدرب الشعارين لصيق بحمام صالح، شمالي الطيوربين داخل باب الجابية، وكانت تعرف كذلك بنور الدولة علي الشرايبي أول من ذكر بها درس تاج الدين عبد الرحمن المعروف بالزواري، ثم درس بها الإمام صدر الدين البارزي، فمن المدارس التي وقفت في بلاد الشام المدرسة النفرية النورية التي يذكرها بن شداد فيقول بأنه قد أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي في سنة أربعة وأربعين وخمسمائة، وهناك أيضا مدرسة أخرى اعتنت بالغرباء، وكانت تضم بدون شك عددا من المغاربة وهي المدرسة الشريفة، والتي قال عنها النعيمي أنها تقع عند حارة الغرباء، كما يذكر نقلا عن الشيخ الاسدي الذي أشار عليه بأنه قال عن المدرسة الشريفة هذه (المدرسة الشريفة تقع بدرب الشعارين)، ويضيف بأنه لم يعرف واقفها، وقد درس بها الشيخ نجم الدين الدمشقي رحمه الله، في سنة في سنة تسعين وستمائة ويشير إلى أنه لم يعرف من درس بها غيره.

3- جهود المتصوفة المغاربة في بلاد الحجاز والشام:

شغلت المكانة المرموقة التي تمتعت بها بلاد الحجاز والشام دورا كبيرا في تشجيع المغاربة للسكن والاستقرار مع توفر سبل العيش، ولعل أهمها توفر الأوقاف، إذ عرفت الأوقاف خلال القرنين (6-7هـ/12-13م) في بلاد الحجاز والشام، تزايدا ملحوظا في أعدادها ولقد تنوعت من ربط وزوايا ومدارس ومساجد وغيرها من المراكز والمرافق الأخرى، مما ساهم في تفعيل الحياة العلمية في بلاد الشام والحجاز، إذ يمثل نظام الوقف العمود الفقري للإنفاق على التعليم.

إذ عرفت الحجاز استقطابا كبيرا للناس نتج عنه ظاهرة دينية واجتماعية عرفت بالمجاورة، لما اقتضاه المكان من قداسية وشرف وفضيلة منذ ظهور الإسلام، استنادا على ما جاء في القرآن الكريم والسنة وآيات وأحاديث تفصح عن مكانة الحرمين الدينية. (السنيدي، 2006: 08)، هذه الأوضاع زادت من جذب طلبة وعلماء المغاربة، خاصة على العلوم الشرعية، وذلك راجع إلى طبيعة أهل المغرب الذين عرفوا بإقبالهم الكبير على دراسة العلوم الدينية تحصيلًا وتعلِيمًا، اهتمام أهل الحجاز أيضا بالعلوم الشرعية، فهذا سليمان عبد الغني مالكي يذكر لنا موضحا أن ما يدور في مكة والمدينة من حلقات العلم جلها من علوم دينية مختلفة، وأهم هذه العلوم، الحديث الشريف والفقه، وعلم القراءات والتفسير، وكان لعلم التصوف نصيب. (سليمان عبد الغني مالكي، 1981: 187)

ومن بين علماء الغرب الإسلامي الذين استقروا بالحجاز نجد:

- أبو حفص عمر بن عبد المجيد الميانشي (ت 581هـ/1185م)
- أبو عبد الله جمال الدين بن عبد الله بن الفتوح المكناسي (ت 592هـ/1196م).
- أبو جعفر أحمد بن علي الفنكي (ت 596هـ/1199م)
- أبو علي منصور بن حمزة المكناسي (كان حيا في عام 595هـ/1198م)
أمام المالكية بالحرم الشريف.
- محمد بن عبد الله بن أبي الفضل السلمي المرسي الأندلسي (ت 655هـ/1257م) العلامة المفسر الفقيه المتقن، له التعليقات الرائعة في كل فن، جاور بمكة لسنين كثيرة. (برمضان، 2023: 168)
- والشيخ الفقيه عبد الله بن موسى الزواوي (ت 734هـ/1333م) الذي حج حوالي سنة (690هـ/1289م)، وأخذ عن المقرئ الشيخ العفيف الدلاصي (ت 723هـ/1322م) وغيره، وأقام بمكة والمدينة متصدرا للتدريس إلى غاية وفاته وكان يعد من الأولياء الصالحين .
- ومثل أبو عبد الله محمد بن حسان التاونتي، المعروف بابن الملي (ت 590هـ/1193م) غادر قريته تاونت من أعمال تلمسان باتجاه مكة، ثم دخل المدينة المنورة، ثم الشام، واستقر به المقام في جبل لبنان، ونظرا لورعه وزهده وعلمه، اختاره صوفية الجبل إماما عليهم بعد وفاة شيخهم. (بونابي، 2004: 269)

أما بالنسبة لبلاد الشام، فقد كانت بدمشق زاوية خاصة بالمالكية سميت باسمهم وهي الزاوية المالكية وتقع بالجامع وقفها السلطان الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله، ملاصق المقصورة الحنفية، من غربي الجامع بدمشق درس بها الشيخ زين الدين الزواوي، ومن بعده جمال الدين ابن يعقوب يوسف بن السلام بن عمر الزواوي، قاضي المالكية ومدرسهم، كان فاضلا قليل التكلف والتكلف، ومن بين الوافدين أيضا على هذه الزاوية، علي بن علوش بن عبد الله المغربي برهان الدين حيث كان إمام المالكية بدمشق.

ويبدو أن كثرة الجالية المغربية بالقدس الشريف دفعت بالأيوبيين، ومن بعدهم المماليك إلى الوقف العديد من المؤسسات الدينية والثقافية، على هذه الفئة فقد كان في مدينة القدس وحدها ستين مؤسسة مابين الزوايا وخانقاه، وتردد عليها العديد من الطلبة المغاربة في شتى حقول المعرفة، فمن المدارس الموقوفة نجد المدرسة الأفضلية، التي أوقفها الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين الأيوبي، على فقهاء المالكية بالقدس الشريف عام (589هـ/1193م)، والمدرسة المذكورة بنيت في حارة المغاربة وأصبحت بعد ذلك دار يسكنها جماعة من الفقراء المغاربة، (الشهاب، 2001-2001: 17)، وهي من جنوب سور المدينة ومن الشرق حائط الحرم الشريف ومن الشمال باب السلسلة ومن الغرب حارة الشرف حيث يسكن الحكام والقضاة والوجهاء. (التازي، 1981: 13)

ولقد حظي المتصوفة باهتمام من خلال تخصيص لهم أوقاف فمن بينها الخانقاه الدوادية التي أوقفها الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الدوادار الصالحي في عام (695هـ/1295م)، لتؤدي عملها العلمي فقد جاء في كتابة منقوشة على بابها الخارجي أن صاحبها وقفها ابتغاء ثلاثين نفرا من الطائفة الصوفية والمتصوفة.

ومن المتصوفة المغاربة الذين أدخلوا المفاهيم الجديدة في المجتمع الشامي في حينها هو ابن عربي (ت638هـ/1164م)، صاحب فكرة وحدة الوجود كما يعد ابن العربي أعظم شخصية مغربية سكنت بلاد الشام في العصور الوسطى، من حيث تأثير أفكاره وإنتاجه، والجديد في مؤلفاته هو مذهبه وحدة الوجود الذي لم يكن له وجود في الإسلام في صورته الكاملة قبل ابن العربي، فهو الواضع الحقيقي لدعائمه، والمؤسس لمدرسته والمفصل لمعانيه ومرامييه، والمصدر له بتلك الصورة النهائية التي أخذ بها كل من تكلم في هذا المذهب من العلماء المسلمين من بعده. (العربي، 1946: 25)

عفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله الكومي التلمساني (ت690هـ/ 1291م)، أحد أقطاب وحدة الوجود في تلمسان، رحل إلى المشرق وأثرى الحياة الثقافية والفكرية في كل من مصر والشام، وكانت محطته الأولى دخوله بلاد الروم التي اظهر فيها قدرته على الخلوة والانقطاع، حيث قام بأربعين خلوة كل خلوة بأربعين يوما، ثم دخل دمشق وعمل بخزانة المال لدى السلطان المنصور. وقد حظي بالاحترام والتبجيل من طرف العامة والخاصة، وتعد هذه المرحلة من أخصب مراحل حياته، ففيها جمع بين الكتابة والشعر والتصوف، ساهم في الحياة الثقافية والفكرية بجملة من المصنفات.

نلاحظ أن الأوقاف ازدهرت خلال القرنين السادس والسابع للهجرة، وهذا راجع لاهتمام العامة والحكام بها، مما زاد من جذب مختلف الفئات واستقرهم فيها ومن بينها المتصوفة المغاربة التي وجدت المناخ المناسب للاستقرار في بلاد الشام والحجاز، بسبب تنوع المؤسسات الوقفية من مساجد وربط وزوايا، كذلك ساهمت الأوقاف في تحقيق نهضة علمية كبيرة مما جعلها قبلة للعلم والمتعلمين، من خلال توفير المدارس التي زادت من ازدهار الحياة العلمية.

- خاتمة:

- من خلال ما سبق ذكره نخلص لجملة من النتائج التالية :
- الدور المحوري الذي قامت به الأوقاف الإسلامية بمختلف أنواعها خاصة ببلاد الحجاز والشام في الحفاظ على الحياة الفكرية والاجتماعية وذلك من خلال توجيه عائداتها للعناية بالعلماء والطلبة والفقراء واليتامى
- إسهامات المتصوفة المغاربة في تنشيط حلقات الدرس والذكر ومجالس العلم نظرا للرصيد الفكري لهؤلاء المتصوفة، الذين جمعوا بين علوم القرآن والفقه، وعلوم الحديث وحفظ المتن والأوراد.
- عملت الأوقاف الإسلامية على خلق جو من التكافل الاجتماعي بين مختلف طبقات المجتمع مما زاد من استقطاب جذب المتصوفة المغاربة.
- ساهم وجود المتصوفة المغاربة ببلاد الحجاز والشام في إنشاء روابط ثقافية، أدت إلى تطور مختلف العلوم والمعارف لدى هؤلاء والذين ترجموها إلى مؤلفات وكتب.

من خلال عرضنا لأهم النتائج التي توصلنا إليها نوصي بما يلي:



- الاهتمام بإنشاء الأوقاف بمختلف أنواعها لما لها من أجر عظيم وثواب جزيل، الذي يلحق الواقف في حياته ومماته
- يجب علينا الاستثمار في الأوقاف الإسلامية وتفعيل دورها في مختلف الأصعدة وزيادة التوعية من أجل الاهتمام بها لما تكتسبه من أثر كبير في تطوير وازدهار المجتمع الإسلامي في مختلف المجالات.
- إعطاء الأولوية للأوقاف الإسلامية لما لها من دور في معالجة مختلف و الوضعيات الاجتماعية والتقليل من الآفات.

- قائمة المراجع

- 1- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
- 2- ابن العربي، أبو عبد الله محمد بن علي (ت 638هـ/1240م)، (1946م). فصوص الحكم، تحقيق أبو العلاء، ج 1. بيروت: مكتبة الزهراء.
- 3- ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ت 776هـ/1373م)، (1987م). رحلة ابن بطوطة تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: محمد عبد المنعم العريان، مراجعة: مصطفى القصاص، ج 1، ط 1، بيروت: دار إحياء العلوم.
- 4- ابن زكرياء، أبو الحسن أحمد بن فارس، (د.ت). معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد الهارون، ج 6. بيروت: دار الفكر.
- 5- ابن عرفة، أبو عبد الله محمد الأنصاري الرصاع (ت 894هـ/1489م)، (1993). شرح حدود ابن عرفة، تحقيق محمد أبو الجفان، الطاهر المعموري، ط 1. لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- 6- ابن قدامة، موقف الدين عبد الله بن أحمد ابن قدامة المقدسي المغربي، (1996 م). ج 8، دط. تحقيق محمد عبد الفتاح الحلو، القاهرة: دار الحديث.
- 7- ابن مرزوق الخطيب التلمساني، (2008 م). المناقب المرزوقية، دراسة وتحقيق: سلوى الزاهري، ط 1. المملكة المغربية: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- 8- أبو شامة: أبو محمد شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي (ت 665هـ/1267م)، (1997 م). الروضتين في أخبار الدولتين النورية والإصلاحية، تحقيق إبراهيم الزبيق، ج 2، ط 1. بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة.
- 9- الجرجاني، علي بن محمد بن علي الحسيني، (2008 م). التعريفات، تحقيق: نصر الدين تونسي، ط 1. مصر: شركة القدس.
- 10- السرخسي، محمد بن أحمد بن أبو سهل شمس الأئمة السرخسي (ت 483هـ/1090م): المبسوط، ج 12. بيروت: دار المعرفة.
- 11- الشربيني شمس الدين محمد بن الخطيب، (1997 م). معنى المحتاج إلى المعرفة معاني الفاظ المنهاج، تحقيق: محمد عيتاني، ج 2، ط 1. بيروت: دار المعرفة.

- 12- الطاهر بونابي، (2004 م). التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 الهجريين 12/ و 13 الميلاديين (نشأته-تأثيراته-دوره الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي)، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر: عين مليلة.
- 13- الطرابلسي، إبراهيم بن موسى، (2015 م). الإسعاف في أحكام الأوقاف، تحقيق صلاح محمد أبو الحاج، ط1. الأردن: دار الفاروق.
- 14- الفاسي، نقي الدين محمد بن أحمد الحسيني (ت832هـ/1222م)، (1986 م). العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تح: محمد حامد الفقي، ج1، ط2. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- 15- ابن جببر، محمد أبو أحمد ابن جببر (ت614هـ-1217م): تذكرة الأخبار في إتفاقيات الأسفار، والمسمى رحلة ابن جببر، دار الشرق العربي.
- 16- حسين أمين، (رمضان 1401هـ). المساجد وأثره في تطوير التعليم، مجلة دراسات التاريخية، ع2، جامعة دمشق، ص7-10.
- 17- حسين عبد العزيز حسين شافعي، (1995 م). الرباط في مكة المكرمة منذ البدايات حتى نهاية العصر المملوكي، كلية الشريعة قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير بقسم الحضارة والنظم الإسلامية، المملكة العربية السعودية.
- 18- سعيد عاشور، (1987 م). المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية في موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ج3، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- 19- سليمان عبد الغني مالكي، (1981 م). بلاد الحجاز منذ بداية عهد الاشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد، رسالة دكتوراه، اشراف: د محمد أمين صالح، كلية الآداب قسم التاريخ، جامعة القاهرة.
- 20- صالح بن حسن المبعوث، (2000 م). من قضايا الأوقاف المعاصرة الاثار المترتبة على الوقف على الذرية، مؤتمر الأوقاف الأول جامعة ام القرى، السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف.
- 21- عبد العزيز ابن راشد السنيدي، (2006 م). المجاورون في مكة، وأثرهم في الحياة العلمية خلال الفترة من (750-660هـ/1174-1261م)، بحث مقدم إلى مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام 1426هـ، ط1، مكتبة الملك فهد الوطنية، جامعة أم القرى.
- 22- عبد العزيز بن محمد الداود، (1400 هـ). الوقف: شروطه وخصائصه، أضواء الشريعة، الرياض، كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- 23- علي منصور نصر الشهاب، (2001 م). الحياة العلمية في القدس في القرن الثامن الهجري (في ضوء كتاب الدرر الكامنة لابن جببر)، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية 22، الكويت: مجلس النشر.
- 24- محمد بن عبد الرحيم سلطان العلماء ومحمد أحمد أبو ليل، (1422 م). الوقف مفهومه ومشروعيته، أنواعه وحكمه وشروطه، جامعة أم القرى، مكة.
- 25- محمد بن عبد الله، (1996 م). الوقف في الفكر الإسلامي، ج1. المغرب: مطبعة فضالة.

- 26- محمد محمد أمين، (1980 م). الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (648-923 هـ / 1250-1537م) دراسة تاريخية وثائقية، القاهرة: دار النهضة العربية.
- 27- مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (1955 م). صحيح مسلم تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ج3. بيروت: دار الكتب العربية.
- 28- معروف ناجي، (1977 م). المدارس الشراعية ببغداد وواسط ومكة، ط2. القاهرة: دار الشعب.
- 29- ابن تغري، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري البردي الاتاكي (874هـ/1469م)، (1939 م). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج3. دار الكتب المصرية.
- 30- ابن شداد، عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن براهيم (684هـ/1285م)، (1991 م). الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: يحي زكريا عبارة، ج1. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.
- 31- ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (692هـ/1298م)، (1957 م). مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، ج1. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية المطبعة الأميرية،
- 32- التازي عبد الهادي ، (1981 م). أوقاف المغاربة في القدس (وثيقة تاريخية سياسية قانونية)، المغرب: مطبعة فضالة.
- 33- الطيب برمضان، (2023 م). الحضور المالكي في بلاد الحجاز على مستوى التصنيف الفقهي (خلال العصر الوسيط)، مجلة النوازل الفقهية القانونية، جامعة بن يوسف بن خدة، المجلد 07، العدد 02، الجزائر، 159-175.
- 34- الفاسي، محمد بن أحمد بن علي الفاسي المالكي (ت832هـ)، (1956 م). شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ج1، مكتبة النهضة الحديثة، دار الكتب العربية.
- 35- النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي: الدارس في تاريخ المدارس، (1990 م). تحق: جعفر الحسيني، ج1. بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية.
- 36- عصام محمد شبارو، (1994 م). السلاطين في المشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري السلاجقة- الأيوبيون، بيروت: دار النهضة العربية.
- 37- مفتاح خلفات: قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط مابين القرنين (6-9هـ / 12-15م) دراسة في دورها السياسي والحضاري، تلمسان الجزائر: الأمل للطباعة والنشر.
- 38- يحيي محمود الساعاتي، (1996 م). الوقف وبنية المكتبة العربية، ط2. الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.